تقديم

عادةً ما ينحو القول في الماركسية عمومًا والماركسية العربية تعيينًا، إلى أن يكون حديثَ نكايةٍ وتنفيرٍ أو حفاوة وتبشير، فالقول الأول: أصحابه من الخصوم الكارهين للماركسية من كل وجه، لا يميزون فيها صالحًا من طالح، ولا يتأملون منها نفعًا بإطلاق. مذهبهم مذهبُ التاجر الذي وقف على عيبٍ في طرف من البضاعة فرد الجمل وما حمل طرًا، وصرف وجهه ولم يعقب، وقد يبلغ به الحنق أن يحشد ما أمكنه الحشد للحمل على صاحب البضاعة وإخراجه من السوق وتغريبه في الأمصار.

أما القول الثاني: فأصحابه من المعتنقين للمذهب الماركسي المؤمنين بضرورة الانخراط العربي في استلهامه وسلوك مسالكه في النظر والعمل دون تغيير فيه ولا تعديل، زاعمين في هذا المذهب مزاعم تضعه فوق مراتب الأفكار البشرية المتقلبة بين الخطأ والصواب. وحتى المشتغلون منهم بالنقد والمراجعة، فإن غاية ما يثمره شغلهم هذا، تحليقات وجدانية في استجماع التجربة وتأريخها أو نقد ذاتي داخلي للتجربة في مجملها أو في جانب منها في هذا البلد أو ذاك من البلاد العربية، وهو في الغالب نقد

«رفاقي» متعاطفٌ ينقصه الحياد وتغيب فيه شروط الموضوعية اللازمة، ويحتكم في الغالب إلى منطق النظرية ذاتها وقوانينها المادية التاريخية، فيحكم على نفسه بالسقوط في آفة الدور بجعل ذات الماركسية حكمًا في تقويم الماركسية[1].

وكلا القولين لا نرى فيهما سبيلًا وجيهًا لمن طمع في الظفر بفائدة من النظر في هذا الفكر وما ارتبط به من تجربة عربية في تطبيقه وتشغيله. فالقول الراجح في هذا المقام أن يقال: إن الماركسية العربية ينبغي أن توضع موضعَ الفحص والنظر المتأمل الباحث عن أنحاء الحكمة فيها وأوجه العبرة منها، إذ الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، والعبرة من مطلوبات أولي الألباب يلتمسونها في كل باب. ولأجل قنص الحكمة ودرك العبرة من الفكر الماركسي (والمستعرب منه خصوصًا) وكسبه النظري والعملي لا مناص من تحصيل فهمٍ صحيحٍ لهذه التجربة ولمسارها وجردٍ سليمٍ لنماذجها ومدارسها، وهو مقدمةٌ ضروريةٌ لفرز عناصر

(١) الدور في الاستدلال Begging the Question أو Circular Reasoning أو باللاتينية Petitio Principii هو مظهر معيب فيه، وقد يغدو ضربًا من المغالطة يقوم على جعل ما هو مطلوب (نتيجةً) في الاستدلال مقدمة يبنى عليها هذا الاستدلال، فيكون هذا المطلوب الذي لم نَتَسَلَّم بعد صدقه سندًا لصدق غيره من المطلوبات التدليلية، ومناسبة لفظة الدور هاهنا أننا في هذا المسلك التدليلي نكون كالذي وقع في حلقة مغلقة يدور فيها بلا أمل في الخروج منها، فإذا سئل عن الأصل في صدق المطلوب يحيل على المقدمة، فيجد نفسه مرة أخرى أمام المطلوب نفسه الذي يراد التدليل على صدقه، فيظل الفكر دائرا في هذه الحلقة المغلقة.

القوة الكامنة فيها وتعيين مواطن العطب حتى تتهيأ شروط الاستفادة منها باعتبارها رصيدًا وضع فيه العرب جهدًا غيرَ يسيرٍ، واستثمروا فيه زمنًا غير قصير، من السفاهة شطب كل ذلك بجرة قلم، مثلما هو سفيه رأي من يرى فيه كمالًا مطلقًا يُعمل به دون أخذ ولا رد.

وللماركسية في بلاد العرب قصةٌ مثلما لها قصص في كل موطن من أرض الله الواسعة، وقصتها العربية: أنها وفدت من ضمن ما وفد إلى وطن العرب حين تهيأت الأحوال لاستئناف السير بعد زمن من العطالة، وحين آن أوان الخروج من كهف السبات الذي أقام فيه العقل العربي أمدًا طويلًا، فدعا الداعون قبل قرن ونيفٍ بدعاية النهضة ونبذ الانحطاط ومسبباته من كسلٍ وخمولٍ وتنكبٍ عن سبل الاجتهاد ومسالكه، وتلفَّت أولو الفكر منهم في ما أنتجه نظر الأمم الغربية من أصول في العلم ومبادئ في العمل، واعتنوا بعرض طرفٍ من ذلك لأبناء جلدتهم بلغتهم العربية، وطرائقهم الإعرابية، وكان من ضمن ما تعهده طائفة من النظار في هذا المضمار بسط جوانب من الفكر الاشتراكي عموما، ونسخته الماركسية خصوصا، وبالأخص إخراجاتها اللينينية التي بدأت حينذاك تخطو في الأرض فاعلةً متفاعلةً، ينقل أخبارها بريد الحوادث، ويبشر بها المبشرون في كل ناد، ويعلق عليها المحبطون آمالًا عريضةً. مثلما انبرى الشاكون في أمرها، الحذرون مما ظهر لهم من خفايا الشر فيها، للكشف عما رأوه من ذلك، وبيانه للناس كي يأخذوا حذرهم.

والظاهر أن إشراف الماركسية على عالم العرب ذاك، لم تسعفه محاولات الانفلات من الوضع المفارق الذي أحاط بمجمل فاعليات الإنهاض وجهود التمدين التي حاولها المحاولون في ذلك الإبان، فقد عانت هذه الفكرة من مأزق لا تزال ذيوله فاعلةً في حركتها بين العرب إلى يوم الناس هذا، وبيان ذلك أن هذه النظرية التي إنما قامت -بزعم أصحابها- لردعِ التغول الرأسمالي ومنازع التسلط والقهر الاجتماعي التي ترافق هذا النظام، قُدِّر لها أن تصل إلى العالم العربي محمولةً على أمواج المد الرأسمالي في طوره الاستعماري، والذي حطم الحصون وجرف الأسوار ووضع عالم العرب بين لحظة وأخرى في عراء تام من تاريخه وتجربته الحضارية الممتدة في الماضي، وقد وجد الوعي العربي القارئ للماركسية نفسه في وضع مفارق بين رفض هذا المنتوج الفكري الذي خطته أقلام محسوبة على أمم هذا الوافد الغاشم، وبين الانفتاح على هذا الفكر الذي بدأ يتكشف عن محتوٍ فريدٍ، يتحرك فيه خطاب جاهزٌ وصارمٌ في نقد النظام الرأسمالي ومنتوجه الاستعماري، وفضح أدواته الظاهرة والخفية في تثبيت الظلم وتوسيع نطاقه اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا. خطاب بالغ الدقة متين البناء يقارع الرأسمالية على أرضها وبأسلحتها، يفكك أصولها الفلسفية ويكشف آلياتها الاقتصادية والاجتماعية التي تعمل على تعميق الاستغلال والقهر. خطاب كذلك يهيئ الأرضية المناسبة لمباشرة الحركة الضرورية في مواجهة هذا الزحف الاستعماري الغاشم: المقاومة في أفق

التحرر. وقد نَفَرَ نَفَرٌ من أبناء هذه الأمة للسير على دروب هذه النحلة تنزيلًا وتشغيلًا بعدما حصَّلوا الكفاية في الدرس والمدارسة، فخاضوا بها في معتركات السياسة وتقلبوا معها في مدارات الأحداث، فأصابوا هنا وأخطؤوا هناك، وسَرُّوا هذا وأسخطوا ذاك، فتنازع الناظرون في كسبهم وذهبوا في شأنهم مذاهب شتى.

في هذه المدارات يدور حديثنا الجاري بين دفتي هذا الكتاب، نتجول فيه مع الأفكار ونحاور أصحابها، نطالع الأحداث ونصغي إلى صناعها، ونحن في هذا التجوال نأخذ بمعنًى رحبٍ لمدلول «الماركسية»، لا نلتزم فيه تشديداتِ «الرفاق الماركسيين» في اصطلاحاتهم، ومذاهبهم في تحديد أعيانها وتعيين حدودها، فالنسبة عندنا نسبة فكرٍ وتفاعلٍ، وعذرنا ذا أن هذا الكتاب ليس «كتابًا ماركسيا»، بل هو «كتاب عن الماركسية»، والمقاربة فيه أميل إلى العناية المعرفية منها إلى المعاناة «الإيديولوجية» التي نتركها وما يتعلق بها لأهلها ومقاماتها.

ومن جانبٍ آخر، فإن هذا الكتاب مختصرٌ جامعٌ خفيفٌ، فلا يطمَعَنَّ الباحث عن أخبار الماركسيين العرب في تفصيلاتها أن يجد فيه ضالته ومراده، فلو أردنا التفصيل لما وعت دفتاه تجربة قطر واحد من الأقطار العربية، لا بل ولا تجربة فصيل واحد من فصائلها في هذا البلد أو ذاك، فتجارب الإنسان وما يعتمل فيها من معاركات ومكابدات ومحن ومعاناة لا قبل لمداد الأرض بلم جُمَاعِها، إنما غرضنا بالأساس ما سبق الإيماء إليه، إلقاء سهم في

هذا المضمار، وإدلاء دلو في هذه البحار[1]، فلو خرج الناظر في هذا العمل بلمحة حول المذهب الماركسي وذيوله (المستعربة) في الثقافة العربية وطائفة من الأسئلة التي أثارتها تفاعلاته في هذا السياق العربي الهائج بالأحداث النابض بالمعاناة، نكون قد وفينا بالمقصود لدينا، والمعول على تراكم الجهود مع توالي العهود.

إن هذا الكتاب خطوةٌ متواضعةٌ في مفازات هذه التجربة الواسعة الشاسعة، نسهم به إسهام المُقل في هذا الجهد الاستكشافي الضروري لبناءِ وعي عربي بالذات، فالعرب اليوم أحوج ما يكونون إلى وعي الذات وإنعام النظر فيها، وتسليط الضوء على زواياها المعتمة، والوقوف وقوف الناقد الحاذق أمام عثرات الماضي لتصحيح الخطو في المقبل من مسارها، وتسديد الرمي في الآتي من معاركها التي يظهر من نسق الأحداث الراهنة أن في جولاتها يكون الحسم في أمر هذه الأمة، أَتَكُون أو لا تكون؟

وقد دُعينا للقول في هذا الشأن بعد طول بعاد عن الكتابة في هذه الأبواب من النظر[2]، وانقطاعٍ شبه كلي إلى حقول من

(١) قد نعد هذا العمل خريطة طريق لهذا المبحث، ترسم شعابه ومسالكه، وتنظر في مداخله ومناهجه، وقد يكون من الأبحاث القليلة (وربما الفريدة) التي تشرف على التجربة الماركسية العربية ضمن هذا النطاق الجغرافي الممتد، وبهذه المقاربة الشاملة الجامعة، وهو لهذا السبب مُعَرَّض لما تتعرض له الأعمال التأسيسية من صنوف الخلل وضروب الزلل.

(٢) حصيلة المؤلف من هذا المبحث كانت لحظة البدء في تحبير هذا الكتاب حصيلة =

التخصص بعيدة غاية البعد، وقد وجدنا القلم عصيًا على المطاوعة في مستهل المشوار، وبعد شوط من المدافعة، وآخر في المراجعة، انقدح الزناد وسال المداد، فكانت هذه الكلمات التي نرجو الله أن تنال من الرضا حظًا أوفر من السخط، وأن تصيب من القارئ مواضعَ الحلم فيه، فيغض عن الغلط والشطط، والله ولي التوفيق وهو المستعان في كل أمر.

= قارئ فيه متوسط المتابعة، ثم مضى في السبر والتجميع والنظم والتفريع حتى استوى هذا العمل على هذه الهيئة، فلا يطمعن القارئ أن يجد في هذا السفر عملًا متخصصا بالمعنى الدقيق للكلمة، وقد أعذر من ذَكَّر.